

# بِالْمَادَّةِ أَصْلِي

بقلم

الأب هنري بولاد اليسوعي

نقله إلى العربية

الأب كميل جشيمه اليسوعي



دار المشرق  
بيروت

موسوعة

المعرفة المسيحية

الحياة الروحية

٧

طبع هذا الكتّيب بمساهمة عائلة جرجي نعمة الله عقّاد

# بِالْمَادَّةِ أَصْلِي

بِقَلَمِ

الأب هزري بولاد اليُسُوعِيَّ

نَقَلَهُ إِلَى الْعَرَبِيَّةِ

الأب كميل حشيمه اليُسُوعِيَّ



دار المشرق  
بيروت

موسوعة  
المعرفة المسيحية

الحياة الروحية

٧

لا مانع من طبعه

بولس ياسيم  
النائب الرسولي للآتين  
بيروت، ١٩٩٦/١٠/٣

جميع الحقوق محفوظة، طبعة أولى ١٩٩٧  
دار المشرق ش م م - ص. ب. ٩٤٦، بيروت-لبنان

ISBN 2-7214-4810-2

التوزيع: المكتبة الشرقية  
ص. ب. ١٩٨٦، بيروت-لبنان

## في سبيل صلاة متجسّدة ملاقاة الله في صميم المادّة

ما دام الله أساس كل شيء وقلب كل حقيقة ، وما دام كل ما نراه هو مجبول بالمادّة ، فلم لا نحاول أن نجد الله في صميم هذه المادّة ، في أبعد أبعادها الحسيّة الملموسة ، «المادّيّة» بالذات؟

تختلف النظرة المسيحيّة إلى المادّة عن النظرة المانيّة في أنّ الثّانية تَعَدّ المادّة عنصر الشرّ ، العنصر السلبيّ الفاسد ، في حين تسمو المسيحيّة بالمادّة وتُحلّها محلّاً مرموقاً ، في مركز الصّدارة .

فمن المعلوم أنّ المانيّة تقول بِالْهَيْنِ اثنين : إله الخير الذي هو أساس الروح والعالم اللامنظور ، وإله الشرّ وهو أصل الجسد والعالم المادّي . من هنا كان تقسيم العالم إلى نِطَاقَيْنِ: أحدهما روحيّ يصدر عن الإله الصالح ، والآخر مادّيّ مصدره الإله الطالح . وهذان الإلهان في صراع مستمرّ أحدهما مع الآخر منذ البدايات ، ممّا يفسّر التوتّر القائم في داخل العالم والإنسان . وصاحب تلك الفلسفة هو رجل من الفُرس يُدعى ماني ، ومن وحيه انطلق التيار المزدكيّ الذي انتشر في بلاد فارس بهيئة «النبيّ» زرادشت ، أحد المشاهير في تاريخ الديانات .

أما المسيحية فهي ، على خلاف ذلك ، تعلن أنّ المادّة صالحة في جوهرها ، وترى أنّها عُنصر أساسي من العناصر التي تكوّن الشخص البشريّ ، وذلك لعدّة أسباب: أولها لأنّها من صُنع الله تعالى ، وثانيها لأنّ الإنسان جُبلَ منها كما رواه الكتاب المقدّس ، واسم «آدم» ، سواء أفي العبريّة أم في العربيّة ، مشتقّ من جذر له علاقة بالأرض : ف«أدّمة» بالعبريّة تعني التراب ، و«أديم الأرض» بالعربيّة هو ما ظهر منها. وكلمة «إنسان» بلفظها اللاتينيّ Homo (ومنه لفظة Homme بالفرنسيّة) لها علاقة مباشرة بكلمة Humus التي تعني «التراب». وهناك سبب ثالث هو أنّ الله ، خالق المادّة في البداية وخالق الإنسان مرورًا بهذه المادّة ، أراد أن يحبس نفسه فيها لما تجسّد .

أضف إلى الأسباب الثلاثة هذه، أربعةً أخرى : في الإفخارستيا ، وهي امتداد التجسّد ، يَستخدم الله الخبز ليهبنا ذاته . وقيامة يسوع هي تبنّيه تلك المادّة تبنّيًا لا رجوع عنه . وصعوده إلى السماء هو دخول المادّة مؤلّهةً مؤبّدةً في عالم الله الأزليّ . وأخيرًا ، في قيامتنا نحن ، تشترك المادّة في حياتنا الأبدية إلى ما لا نهاية له .

### أومن بقيامة الجسد

لا نقول في «قانون الإيمان» : «أومن بخلود النفس» بل «أومن بقيامة الجسد» . فالمسيحية ، وهي ديانة التجسّد ، تنظر إلى

المادّة نظرةً تفاؤليّةً غير وجلة. لذا أودّ أن أواجه المادّة الآن لاكتشاف بُيُوتها وجمالها انطلاقاً من خبرة حياتيّة.

تفيدنا العلوم الحديثة أنّ المادّة تختزن في أعماقها مصادر طاقة لا تنضب وقدرات لا حصر لها ولا حدّ، حتّى إنّ حصاة صغيرة جدّاً تستطيع، بما تحتويه من طاقات، أن تؤمّن حاجات مدينة بحجم الإسكندريّة مدّة عدّة أيّام. ومخزون الطاقة الغنيّ هذا، الكامن في أعماق المادّة، من أين، يا ترى، مصدره؟ أجيب: من عند الله.

أجل، إنّ الله هو الطاقة بالذات في صميم المادّة. إنّهُ القدرة التي تربط عناصر الذرّة بنواتها فتحول دون تفكّكها وانحلالها. ومن المعلوم أنّ في داخل المادّة قوّتين متضادّتين: إحداهما طاردة، والثانية جاذبة؛ وأنّ المادّة مكوّنة من ذرّات، والذرّة هي عبارة عن نواة تدور في فلكها إلكترونات، والمسافة بين النواة والإلكترونات هي شاسعة، إذ إنّها، نسبياً، كالمسافة التي تفصل الشمس عن الكواكب.

وعليه، ففي داخل المادّة فراغ شاسع، والعنصر الأساسيّ صاحب الوزن فيها، هو النواة. وهذه النواة، وهي المادّة المحض، تتكوّن من بروتونات، وهي جُزئيّات إيجابيّة، تميل الى الابتعاد بعضها عن بعض، ما دام الإيجابيّ ينبذ الإيجابيّ، في حين يجتذب السلبّيّ. ولكن، على الرغم من قوّة الطرد هذه، نرى أنّ تلك الجُزئيّات تقوم معاً، بعضها إلى بعض في النواة، على

حالٍ من الضغط والاتحاد عجيبة . فهناك في صميم المادّة معجزة ، تتجلّى في اتحاد البروتونات التي ، على الرغم من تنافرها القويّ ، تتعايش عشراتٍ ومئات ، يلتحم بعضها ببعضها الآخر على نحو ما يتعانق الحبيبان . فكيف يتمّ هذا اللقاء بين الأضداد وكيف تتمّ المعجزة ؟

تتمّ هذه الأعجوبة بفضل ما يُدعى الطاقة النوويّة ، وهي قوّة ترابطٍ وتآلفٍ مذهشة تفوق قوّة التنافر الكامنة في الجزيئات . وانطلاقاً من هذه الظاهرة نستطيع الإقرار بأنّ الطاقة التي تربط وتؤالّف وتوحد هي في الكون أقوى بكثير من الطاقة التي تنبذ وتجزئ وتُباعد .

وفي دنيا البشر أيضًا هناك طاقتان متواجهتان : طاقة التّبدد والاستقلال والتفرد ، التي تبعدنا الواحد عن الآخر ، وطاقة أخرى تجمعنا وتوحدنا ، وتُدعى المحبة .

فعلى سبيل المثال أقول إنّ مجرد عيشنا عيشة الجماعة على الرغم من اختلافاتنا وتناقضاتنا ، هو ، في نظري ، أعجب الأعاجيب في دنيانا . . .

وفي أثناء المراهقة ، عندما يكتشف الشاب والشابة تميّزهما واستقلالهما وحرّيتهما ، يظهر في داخلهما نزعة أقوى ، تُدعى الحبّ أو الغريزة الجنسيّة ، تُقرّب الرجل من المرأة والمرأة من الرجل ، فيضحي كلّ منهما بفرادته واستقلاله وحرّيته ويحملها هديّة إلى معشوقه .



فلدينا إذًا، متأصلاً في صميم المادّة، سرٌّ كامن يضطرنا إلى الإعجاب والتعبد .

كيف تستطيع، يا ربّ، ان تجعل جميع تلك البروتونات تعيش معاً، متّحدة على أشدّ ما يكون الاتحاد، في حين تميل جميع قواها إلى التنافر؟ فالحقّ يقال، إنّ تلك القوّة التي جعلتها فيها، تجمع وتؤلف، تلك القوّة التي ندعوها الطاقة النوويّة، لهي في نظري اعظم دواعي الرجاء .

إنّ المادّة تهتف وتعلن: سوف يكون الحبّ أقوى . أجل، سيكون الحبّ أقوى، على الرغم من الحروب والمنازعات، على الرغم من الأحقاد والتوترات بين الأعراق والشعوب والأفراد . فالمادّة تهتف وتعلن: النصر هو للحبّ على المدى، وللحبّ كلمة الفصل .

ومن خلال ما سبق تنجلي لنا فلسفة المادّة بتمامها، وفيها نستكشف سرّ الله بالذات .

فعلى نحو ما يقوم في قلب المادّة قطبان، أحدهما إيجابيّ والآخر سلبيّ، متّحدان وحدة تامّة، يتّحد الآب والابن في الثالوث بواسطة الروح، الذي هو قدرة التكامل في قلب الأنوثة . حقاً إن سرّ الثالوث نفسه مرسوم في صميم المادّة . ولا نتخيّل الثالوث هذا على صورة مثلث أو حقيقة مثلثة الأجزاء، بل إنّ فيه، أساساً، عنصريّين: الآب والابن، كما في المادّة قطبان، أمّا الروح فهو الوحدة بين الآب والابن وحبّهما المتبادل .

وفي هذا المجال أشير إلى أمر لا يخلو من الأهمية : ففي الطاقة النووية التي أتينا على ذكرها ، ثمة وفرة وفير وفرة فيض هي جميعها في نظري علامة وفرة غنى الله وسخائه وعظمته . فلم يخلق الله العالم باخلاً أو مقتصدًا ، بل بسخاء الملوك وغنى يليق بالإله .

وعندما أسمع أحد المتشائمين يشكو أزمة الطاقة أقول متعجبًا : هل يدري ما يقول ؟ فقد كدّس الخالق في الدنيا مخزونًا من الطاقة يفوق الإدراك . والشمس تغدق على الأرض كل يوم مليارات مليارات المليارات من الكيلوواط ، مما يكفي تأمين الطاقة التي تحتاج إليها أرضنا مدة عدة قرون . والأبحاث جادة في أنحاء المعمورة لضبط الطاقة الشمسية هذه ، إلى جانب طاقة الرياح و طاقة البحار .

وعليه ، فحيثما نتجه ، نكتشف فيض سخاء الله . فكأنه تعالى يقول لنا : «إطمئنوا يا أبناءي ، فلديكم من الطاقة في العالم الذي أبدعته ما يكفيكم ويزيد ، طاقة لا حد لها ولا حدود ، كامنة في الذرة والشمس على حد سواء ، في مادة الأجرام السماوية وفي المساحات الممتدة بين الأجرام . لا تجزعوا ولا تضطربوا ، فلن أتخلّى عنكم» .

إذا ما توقّفنا على أقوال العلماء في كمية المادة المنتشرة في الكون لما استطاعت مخيلتنا أن تحيط بالأمر . ففي مجرتنا وحدها هناك بين مائة ومائتي ألف مليار من الشمس الشبيهة بشمسنا .

تصوّروا هذه الأرقام الخياليّة . ومعروف أنّ ثمة بين مائة ومائتي مليار من المجرّات الأخرى منتشرة في الفضاء !

فأمّا هذه الأرقام التي يقشعرّ لها البدن ، يمكننا أن نطرح على الله السؤال التالي : ربّنا ، لِمَ جعلت هذا الكون بلا نهاية ، في حين كان بوسعك أن تكتفي بشمس واحدة تدور حول كواكبها التسعة ؟ إذن لاكتفينا ! فنحن نكاد لا نقوى على الخروج من أرضنا الصغيرة أو حتّى على اجتيازها !

أجل ، عندما نتوغّل في آخر معطيات علم الفلك ، يتتابنا الدوار ، فالسنوات الضوئيّة تعقب السنوات الضوئيّة ، والأكوان تلحق بالأكوان . وإذا بنا نقول : «لِمَ كلّ ذلك ؟ لِمَ هذه الوفرة ؟ وهذا الفيض ؟ ماذا وراء كلّ ذلك ؟ ...» إنّما وراء ذلك غنى الله اللامتناهي ، وسخاؤه الملوّكيّ ، وعطاؤه الإلهي الذي لا يحده حدّ .

وأنّقل الآن إلى فكرة ثانية. فكثيراً ما نسمع من يقول : «إنّنا نعيش في عصر مادّي لأنّ إنسان اليوم اكتشف المادّة وتكوينها ، والعالم وكثافته ، والجسد وغنى كيانه». بيد أنّ هذه الأمور قيّم أصيلة ، وقد تخسرهما المسيحيّة إن هي تجاهلتها .

فقد تأثّرنا إلى حدّ بعيد بآراء أفلاطون الذي ميّز عالم «الأفكار» ، وهو في نظره إلهي ، عن عالم الأجساد ، وهو في رأيه أدنى ومقيت . لقد طبّعنا أفلاطون ، والقديس أوغسطينس الذي تبنّى فلسفته ، بطابع نظريّة الأفكار التي تنكر الجسد وتبذ المادّة ،

وتسعى إلى الانسلاخ عن الدنيا لترتفع في دائرة الأرواح الصّرف .

ولطالما كان الهدفُ الأسمى في الحياة الرهبانيّة العيشَ على نحو ما يعيش الملائكة . والقديس إغناطيوس ده لويولا الذي خلّف لرهبانه نحو عشرين قانونًا في موضوع الطاعة ، وحوالي اثني عشر في شأن الفقر ، تحاشى مواجهة أمر العقّة ، فاكتمى بأن يقول : « لا حاجة إلى شرح نذر العقّة ، ما دمنا نعلم كم ينبغي أن نفتدي بطهارة الملائكة في طهارة أجسامنا وأرواحنا » .

... فالمطلوب إذا الاقتداء بطهارة الملائكة ... ولكن ، حذار ! وقد نبتها يسكال إلى مخاطر « الملائكيّة » إذ قال : « ليس الإنسان ملاكًا ولا بهيمة ، إلّا أنّه من سيّئ الأمور أنّ مَنْ أراد أن يجعل من نفسه ملاكًا ، جعل منها بهيمة » . أشكّ بالغ الشكّ في أنّه ينبغي أن تكون طهارتنا طهارة الملائكة . فنحن بشر ، ويجب أن تكون طهارتنا طهارة بشر . أمّا الملاك ، فلا أدري كيف يعيش ، ولا أدري ما هي طهارته ، لأنّي لم أختبرها ... !

إنّ لكلّ متّا جسمًا ، وعصرنا ، الموصوف بالمادّيّة ، اكتشف فيه بُعدًا وقيمةً نحن في طريقنا إلى تبنيهما . وعدد الكتب الروحيّة التي تعالج في أيّامنا موضوع الجسد والمادّة ينبئ بأن ثمة اكتشافًا مجددًا لهاتين القيمتين . وليس الأمر هوسًا عارضًا ، بل إنّّه عودة إلى فهم التجسّد فهما صحيحًا .

وإني أودّ الآن طرح سؤال : ما هو هدف المادّة ؟ هدفها مزدوج : أن تكون أداة الروح وخادمتها ، وأن تكون الكيان الذي منه تستقي الروح طاقاتها وقدراتها لتحقيق ذاتها . وبعبارة أخرى ، هدف المادّة أن تخدم الحياة والروح وتغذيهما .

إليكم مثلاً الشجرة . فالشجرة ترسل جذورها في عمق التربة ، وهو المكان الثابت الآمن لتثبّت فيه أساساتها . والتأصل يعني أول ما يعني : المتانة والثبات ، والأمان . ولكنّ ثمة أكثر من ذلك ، فالشجرة تتأصل في التربة لتستقي منها حياتها وطاقاتها ، وهي «تستجمع الصخور لتجعل منها أرزة تمجد الله» ، على حدّ ما كتبه أنطوان ده سانت إكزوپيري .

فالأرزة أشبه بالكاهن الذي يفتح ذراعيه في حركة التسبيح والتقدمة ، وهي تغرف من التربة وتفتح ذراعيها العظيمنتين لتجعل من هذه الأرض صلاةً إلى الله . فللأرض وظيفة هي أن تُقيت الحياة ، هي أن تكون العنصر الذي يقبل بأن يؤخذ ليحوّل إلى ما هو أعظم منه . إنّها أشبه بمعمل يتكوّن فيه ملكوت الله رويداً رويداً . ويمكننا القول ، ونحن نستلهم هنا نظرة الأب تيار ده شازدان إلى الأمور ، إنّهُ عندما تفرغ الأرض من تسليم روحها واستنزاف جوهرها ، عندما تنتهي الحياة من استنباط كلّ ما يكمن في المادّة من قدرات ، وعندما يتمّ للإنسان استخراج جميع ما في المادّة والحياة من عناصر لبني ذاته ويكوّنها ، عندئذ تكون النهاية ، أعني يحلّ الملكوت .

سيتمّ الملوكوت ساعة تصل عملية تبدّل الكون العُظمى إلى نهايتها، ساعة تسمو جميع القدرات فتصير روحًا. عند ذاك تكون النهاية.

لقد أتيح لي ذات يوم أن أبين لبعض الشبان كيف أنّ المرء يقوم بعمل ديني إذا ما تبنّى عناصر الأرض وسما بها إلى معارج الروح. وبعد بضعة أشهر، ذهب أحد هؤلاء الشبان، وكان كيميائيًا، إلى ألمانيا ليتدبّر مهنته في مصانع «باير». ومن هناك كتب إلى خطيبته ما نصّه: «يا للعجب! أنا هنا في مختبري، جالسًا إلى طاولتي أمام الآنية المملأى بالمواد الكيميائية والعناصر الملوّنة، بين الأزرق والأحمر والأصفر والأبيض. وفيما أقوم بأعمال المزج والتركيب، أفكر في أقوال الأب بولاد وأرى ذاتي في موقف الكاهن أمام المذبح أحول تلك العناصر إلى جسد المسيح نفسه الذي هو الإنسانية. لأنّ هذه الأدوية التي أهيتها سوف تصبح قدرات تحمل القيامة والحياة إلى الآلاف المؤلّفة من المرضى والمحتضرين الذين سوف يبنون حقًا جسد المسيح. أرى أنّي أقوم بعمل تقديس حقيقي: فطاولة التهيئة هذه هي مذبحي، وهذه الآنية هي كأس، وهذه القصاع هي صينيّتي، وإنّ عملي يحقق فعل تحويل العالم ليجعل منه قربانًا حيًا لتمجيد الله».

ولما حملت لي الفتاة تلك الرسالة وقرأتها، شعرتُ بفرح لا حدّ له، لأنّي نجحتُ في مساعدة ذلك الشاب وجعلته يحيا مسيحيته وصلاته في صميم عمله، في صميم مهنته. لقد دخل

الله في قلب حياته، حياة الباحث الكيميائي، فتحول عمله اليومي إلى عمل ديني مقدّس. ومن خلال المادّة اكتشف دعوة، بل تبينّت له رسالة، رسالته، وهي أن يكون كيميائيًا وكاهن الخليقة في آن معًا ومن دون تمييز.

وهذا أيضًا ما يحصل بالتمام حين تُحوّل الطبخة المواد الغذائية إلى أطباق شهية يقات منها الإنسان. فثمّة أيضًا عمل تحويل مقدّس ومقدّس، يصبح من خلاله الجماد والنبات صحّة وفرحًا ومشاركةً وحبًا. أجل، ففي قلب المادّة تكمن قدرات حياة وحبّ لا تُحصى ولا تُحدّ. وذلك ما نبيّته في النار التي تشبّ من الصوّان في طقوس ليلة الفصح، على نحو ما كان أجدادنا يضرّمون النار مستعينين بحجرّين من الصوّان.

ففي تلك المادّة التي تبدو متينة لا حركة فيها، تكمن النار، أي ما هو الأقرب إلى الروح، والأبعد عن المادّة، والأشبه بعالم الله والنفس. ينبعث النور ممّا هو أقلّ الأشياء نورًا في الدنيا، وأشدّها ظلامًا وكثافة. إنّ قلب ذلك الحجر الجامد هو هيكل مقدّس فيه شعلة تضطّرم.

### خبرة الحصاة

وأنتقل الآن إلى نوع آخر من الحجارة، لنكتشف من خلال الحصاة ما يكمن أيضًا في المادّة.

عندما أشاهد حصًا على ضفاف ساقية ، أتوقّف مُعجبًا بهذه الأشياء الصغيرة الجميلة الملساء . وأتناول واحدة بيدي وبها أصلي .

فالحصاة، شأنها شأن كل ما هو مستدير ، تعبّر عن الكمال وتعبّر أيضًا عن الصلابة والمقاومة : فالحصاة قاسية ، قاسية جدًا ؛ وخلافًا للحجر العاديّ الذي تنال منه عوامل الطبيعة، فهي تصمد في وجه التفتّت وتتحدّى القرون . ثم إنّ الحصاة ذات وزن وثقل ويمكن التحقق من ذلك . فعلينا بحصاة ولنتحسّس وزنها ، وصلابتها، وكثافتها . ثم فلنتلمّسها ونشعر بمقدار ملوستها، فهي ملساء كالجلد، كبشرة الطفل . ومن خلال حاسة اللمس أودّ أن ننمّي في ذواتنا ما أدعوه الشهوة الدينيّة ، الشهوة بمعناها الروحيّ الساميّ .

لا شكّ في أنّ «الشهوة» كلمة مخيفة ، ارتعد منها أعلام التصوّف في القرون السالفة ، وقد رأوا أنّها أداة الشيطان وأمضى سلاح يستعمله ليحارب به الإنسان فيجربّه ويسحره ويستحوذ عليه .

إلا أنّنا إذا ما نظرنا إلى «الشهوة» بمنظار سرّ التجسّد ، بحيث ينبغي ألاّ يُنبذ شيء مادّي أو جسديّ ، وبحيث يجب أن تساهم كل الأمور في بنیان الإنسان الجديد ، فهي ضرورة لا بدّ أن تتبوأ مكانة مرموقة في حياتنا الروحيّة .



إنَّ حاسةَ اللمس تكاد أن تكون أغنى الحواسِّ ، لأنَّ المرء يقوم من خلالها بخبرة شاملة ، أو فلنقل شبه شاملة . ولكنَّها ، من هذا المنطلق بالذات ، أخطر الحواسِّ ، لأنَّها تبلغ الإنسان في أعمق أعماق جسده وحميميَّته . وسبب ذلك أنَّ اللمس هو أوَّل الحواسِّ ، وأقربها الى البدائيَّة . فعلم النشوء والتطوُّر يفيدنا أنَّه ، قبل أن تتبلور العيون والآذان ، والأنوف وحاسة الذوق ، كان الأحياء البدائيُّون يتَّصلون بالعالم الخارجيّ ويختبرونه من خلال اللمس . فهذه الحاسة تجمع في ذاتها سائر الحواسِّ في طورها الأوَّل الأصليِّ .

وعليه ، فلماذا لا ندخل حاسة اللمس هذه في إطار حياتنا الروحيَّة وصلاتنا ؟ فقد نجني من ذلك الكثير ونستعين به للقيام بنوع من الخبرة المفيدة جدًّا ، إذ تكشف لنا أسرار المادَّة . فالمادَّة تحمل إلينا رسالة : تحملها عن طريق العين بدون شكِّ ، فتدفعنا إلى أن نقول : « ما أجمل هذه الحصة ! » ولكنَّها تحملها أيضًا عن طريق اللمس ، وعلى نحوٍ جدِّ مختلف .

لقد طوَّر العميان في ذواتهم حاسة اللمس تطوُّيرًا عجيبيًا لا قبَّل لنا به ، ويا للأسف ! ولا بدَّ لنا أن نتخلَّى عن نظرنا ولو بضع هنيهات لنكتشف ذلك البعد . فحاول أن تُغمض عينيك واللمس بتأنٍّ غطاء الطاولة التي أمامك ، سوف تشعر عندئذٍ بإحساس فريد من نوعه ، يختلف كلُّ الاختلاف عمَّا تشعر به لدى لمسك

الحصاة . فكل شيء يحمل رسالة فريدة ، خاصّة به ، من شأنه أن يغني كياننا .

ولنتخذ من الماء مثالاً . فالماء الذي ألمسه يلمسني ، الماء الذي يسيل على جسمي أو الذي أغطس فيه ، ماء الصنبور الذي يتدفق على يديّ أو ماء النبع الذي أشربه بلذّة ، كم هو غنيّ بالمعاني والمضامين !

فخبرة الماء هذه لا بدّ أن نجعل منها لنا خبرة دينيّة . ولكن من الضروريّ أيضًا أن نترك للوقت مجاله ، ونحيا هذه العلاقة بعمق وتنبيه واهتمام . ويجب أن نشعر بهذا الماء يسيل على أيدينا وأجسامنا ، وأن ندعه يتسرّب إلى كياننا بأجمعه . عندئذٍ ستحوّل هذه المادّة الجامدة العديمة الحياة ، إلى سرّ حياة وقيامة . ولئن اختار المسيح الماء ليجعل منه أداة الولادة الجديدة ، فلم يكن اختياره ذاك سُدى .

والماء هو البحر أيضًا ، البحر بوجوهه المؤلّفة وألوانه الكثيرة ، البحر المتبدّل دومًا ، الجديد والمختلف باختلاف ساعات النهار وأيام السنة . فهل نحتفظ لأنفسنا بالوقت الكافي لتأمل فيه ؟ إنّه يوفرّ للنّاظر إليه مشهدًا لا يمكن أن يَمَلّه .

والمطر هو أيضًا ، في رأيي ، حقيقة تُبهر وتأسر ، لا سيّما حين ينهمر بعنفٍ وغزارة . وما زلت أذكر أنّني لما كنتُ طفلًا في المدرسة ، ويبدأ المطر بالهطول ، كنّا نهرع أنا ورفاقي الصغار إلى

النوافذ، غير عابئين بالجرس والمدرّس، لمشاهدة المنظر الأخاذ. وبعد خروجنا من المدرسة، كنّا نشعر بلذّة فريدة ونحن نغطّس أرجلنا في الحفّر التي طفحت بالمياه، ممّا يسبّب لأهلنا بالغ الانزعاج. وكثير من الشعوب ينظرون إلى المطر نظرتهم إلى حقيقة مقدّسة لأنّه علامة الحياة والقيامة.

ومفهوم الماء هذا، الذي نلتقيه على مدى صفحات الكتاب المقدّس، منذ مياه البدايات التي كان الروح يرفّ عليها، حتّى أنهار الماء الحيّ المتدفّقة من أورشليم السماويّة، لا نستطيع إدراكه كامل الإدراك إلّا من خلال خبرة حياتيّة تمرّ بحواسنا وأجسامنا. إنّ رسالة الماء الروحيّة مرتبطة برسائله المادّيّة. فلا يمكن اكتشاف غنى الروح إلّا بولوج أعماق معانيها الحسيّة، ولا تُدرك حقيقتها إلّا باجتياز مادّيّتها.

وإن أردنا اكتشاف مفهوم الماء كما يتجلّى في الكتاب المقدّس، توجّب علينا اكتشاف الماء في حقيقته المتعدّدة الأشكال والوجوه: ماء البحر وماء الأنهار، ماء البحيرات وماء الجداول، الماء الراقد والماء المتدفّق، ماء الينابيع وماء الأمطار... الماء المميت والماء المحيي...<sup>(١)</sup>.

---

(١) أُحيلُ بهذا الصدد على معجم اللاهوت الكتابيّ (دار المشرق، الطبعة الثالثة، بيروت، ١٩٩١، ص ص ٦٩٧ - ٧٠٠ وسواها)، حيث يُعالج الموضوع معالجة وافية.

وبالإضافة إلى فكرة الماء، يمكن التوقف علي مفهوم الصخرة أيضًا، وهو، وإن بدا نقيضَ المفهوم الأول، إلا أنه يعتبر عن بُعد ديني أكيد.

### الله صخرتي

الصخرة صلبة راسخة، وهي لا تخون. ويمكنك التعلق بها، والتشبّث بنتوءاتها، والاتكال عليها بثقة. وفي هذا السياق أذكر أنني لما كنتُ أتسلّق بعض الجبال في لبنان، صدف أن وجدتُ نفسي مُدلى فوق الهاوية، لا مستند لي إلا تضاريسُ في الصخرة صغيرة كنتُ أتشبّث بها بكلّ ما في أصابعي من قوّة. وكنتُ أعلم حينذاك أنه لا يمكن تلك الصخرة أن تخذلني وتخونني، فهي كانت في نظري علامة المئانة والأمان واليقين.

الله صخرتي... وتعود بي الذكرى إلى حادث آخر من أحداث أيام مراهقتي. فإذا كنتُ أستحمُّ في البحر على شاطئ الإسكندرية توغّلتُ في المياه العميقة بغية الوصول إلى صخرة كانت مرتفعة فوق الماء بعيدًا. وقد بدت تلك الصخرة قريبة أول وهلة، إلا أنها صارت كلّما تقدّمتُ، وكأنّها تتباعد. ولما لم أكن من الماهرين في السباحة، بدأت أشعر بالتعب وأبتلع جرعات من الماء المالح. وفي خضمّ صراعي المستميت مع التعب والقلق، كنتُ مشدودًا بكلّيتي نحو ذاك المرتفع الأسود المطل على الأمواج. وفي النهاية، وبعد جهود مضنية، تمكنت من

التقاط جانبٍ نافرٍ من تلك الصخرة وتسَلَّقَتها . ومن الصعب وصف ما شعرت به حينذاك من الاسترخاء والطمأنينة والسلام .

الله صخرتي . . . ومنذ تلك الساعة صار كلُّ اتِّصالٍ لي بأحد الصخور خبرةً دينيّةً حقيقةً تعبّر عن أمانة الله المطلقة . فلا يمكن الله أن يخذلني ، أو أن يخونني ، لأنّه الصخر الجلمود ، الصخرة التي أستطيع أن أتمسك بها وأستند إليها . فوق الهاوية العميقة هو صخرتي . في خضمّ البحر المائج هو صخرتي . في لجّة الخوف والقلق واليأس هو صخرتي .

تلك الفكرة تتجلى في الكتاب المقدّس حيث يُشار إلى أنّ الصخرة شأنها شأن اليابسة ، وهي عنصر الخير ، في حين أنّ البحار تعني قوى الشرّ . فعندما ثبتّ الله ، في زمن التكوين ، الأرض على المياه ، ووَضَعَ للبحر حدًّا لا ينبغي أن يتعدّاه ، فأبما أعلن بذلك قدرته على الخلق وانتصاره على الشرّ . وعبور البحر الأحمر ينطق بالحقيقة نفسها ، إذ تنحّت المياه وأتاحت للشعب المختار العبور على أرض يابسة . ولما سار المسيح على البحر وأتاح لبطرس الوصول إليه ، فقد عبّر بذلك عن سلطانه الإلهي القادر على ضبط قوى الشيطان في عالمنا هذا .

يعود أصلُ رمزي الأرض والبحر إلى كون الشعب العبري شعبًا باديًا راحلاً متمسكًا بالأرض تمسكه بعنصر يوفّر المثانة والأمان . أمّا البحر فهو العنصر المتحرّك المتقلّب الذي لا يمكن

الوثوق به . وهو يمثّل مكان الخوف والرعب ، تسكنه الوحوش  
الرهيبة ومن بينها يهْثُوت ولَوِيَّاتَان (راجع تكوين ١ - ٦ ، أيوب  
٣٨ - ٣٩ ، المزمور ١٠٤ ، الخ) .

وثمة خبرة لا بدّ من القيام بها من هذا القبيل ، ألا وهي  
خبرة الأرض . تلك الأرض التي ذكرناها منذ قليل ، والتي تَغْرَس  
فيها الأرزة جذورها غرسًا يجعلها تصمد في وجه العواصف  
والأعاصير ، هي المكان الذي يَغْرَس فيه البدويُّ أوتاد خيمته  
وتُشَيّد فيه منازلنا . وسائر ما يرتفع في عالمنا يسعى ، أول ما  
يسعى ، إلى ولوج الأرض ليجد له في العمق جذورًا وأساسًا .

فالأرض هي المكان الآمن الذي يُبنى عليه كلُّ واقع وفيه  
يجد ثباته . ولهذا السبب طالما رأى المرء في الزلازل أفضع الفطائع  
وعلامه نهاية الأزمان . وأذكر أنني شاهدت شريطًا سينمائيًا يمثّل  
زلزال سان فرنسيسكو الرهيب في مطلع القرن العشرين . فقد  
كان ذلك المنظر مريعًا تنفطر له القلوب: الأرض تموج وتغور ،  
المنازل تترقّص ، البنايات الشامخة تنهار ، محلات بأسرها  
تختفي ، وكان الهلع سائدًا . ولكننا لم نَصِلْ إلى نهاية العالم ،  
ولله الحمد . فالأرض ما زالت ثابتة تحت أقدامنا ويمكننا الاتكال  
عليها رغم كلّ الصُروف والغيّر . فهي ، في آخر المطاف ، لا  
تخون ولا يمكن أن تخون . وعليّ أن أتعلّم كيف أنصبّ فيها  
خيمتي وأطلق فيها جذوري . كما عليّ أن أظلّ على اتّحاد بها ،  
لأنّها ذاك الواقع الذي يحميني من الهروب والأوهام . ولا ينذر

أن أجد نفسي ساعة أتنزّه في الحديقة، ضاربًا الأرض بقدميَّ  
ضربًا شديدًا لأختبر متانتها وصلابتها. وإنّها خبيرة سهلة جدًا  
تُتيح إعادة التواصل بالأرض والواقع، فضلًا عن الشعور بالثبات  
والأمان. ولا بدّ لنا من أن نتشبه بالسفينة التي تُرخي مراساتها، أو  
بالطائرة التي تحطّ بعد تحليقها، لنعود إلى الأرض الثابتة، ومنها  
إلى جذورنا.

قمتُ يومًا، مع فريق من المتروّضين، بخبرة سهلة وجذيلة  
الفائدة في آن معًا. فقد انبطحنا جميعًا على الأرض وحاولنا أن  
نشعر بالأرض تحت أجسامنا، ونتحسّس وجودها ومقاومتها. إنّها  
الخبيرة رائعة.

ومعلوم أنّ هناك أسلوبًا من الصلاة الرهبانية قوامه الانبطاح  
على الأرض. وفي كنيسة دير تيزيه (Taizé) الكبيرة، يُشاهد  
الكثير من الشبان والشابات يصلّون على هذا النحو وهم ممّدّدون  
على بطونهم ملتصقين بالأرض. ومن ثمّ فأرى أنّه ينبغي لنا  
اكتشاف هذا النوع من الصلاة. فعندما نلمس الأرض ونشعر  
بها، يتملكنا إحساس بالوحدة معها، فأصبح أنا والأرض  
واحدًا، ولسان حالي يقول: «يا أرض، منك خرجتُ، وإليك  
سأعود. إنّني جزء منك وأنتِ جزء منّي: نحن واحد. ولم  
يَدْعوكِ أمّا إلا عن حُسن معرفة. أجل، أنتِ أمّي لأنّني خرجتُ  
منكِ ولأنّني بعضٌ من لحمك ودمك». وكما أنّ الرضيع يلتصق

بثدي أمه ، ألتصق أنا أيضًا بصدر الأرض المغذي ، تلك الأرض  
التي كوّنت جسمي في البدايات ولا تزال تغذّيه بكيانها يومًا بعد  
يوم .

فيا أيتها الأرض التي لا تنفكّين تحمليني على ذراعيك  
الكبيرتين، إنّي أستسلم لضمّكِ فيما يغمرنني شعور عارم بالسلام  
والأمان . أيتها الأرض ، إنك راسخة قويّة وباستطاعتي أن أستند  
إليك وأتكل عليك، فأنتِ لن تخونيني .

لا بدّ من أن نشعر بالطمأنينة وما يعقبها من استرخاء الجسم  
وأعضائه جميعًا ، لنذكر حميمية الأرض كامل الإدراك .  
واختبارنا كلّ يوم الرقاد والراحة يمكن أن يصبح فعل استسلام تامّ  
وتجرّد عن الذات ، إنّ هو إلّا مقدّمة لآخر أفعال حياتنا عندما  
نسلم الأرض جسدنا بمثابة الحبّة المزروعة ، ونحن نرجو المخاض  
الثاني والولادة الجديدة .



## عود على بدء : معنى الأرض والشعور بها<sup>(٥)</sup>

منذ أن صار الكلمة جسداً ، منذ أن صار الكلمة مادة ، صار كلُّ جسد وكلُّ مادة تعبيراً عن مظهر معين من مظاهر سرِّ الكلمة المتجسّد .

ومن ينظر إلى التجسّد من هذا المنظار ، يصبح لتوّه قادراً على اكتشاف وجود الله في قلب العالم ، ذاك الوجود الحيّ ، الفعّال ، الذي يحيط بنا من كلّ صوب ، ولكّتنا غالباً ما لا نستطيع إدراكه . وفي معرض كلام القديس بولس على الإله المجهول ، جاء ما يلي : «إنّه يعطي الحياة والنفس وكلّ شيء» (...) وفيه حياتنا وحركتنا وكياننا» (أعمال ١٧) .

ولكي نستوعب وجود الله هذا في ما يُحيق بنا ، ينبغي أن نغوص في قلب الواقع ، في صميم الطبيعة التي حولنا . وإني أستعمل في بعض الأحيان عبارة «الشهوة الدينية» لأدلّ على موقف معين من مفهوم الاستقبال ومفهوم الانفتاح على العالم هو نقیض روحانيّة الرفض والرّدّل .

---

(٥) هذا الفصل هو مختصر الشقِّ الأوّل من محاضرة بشقّين عنوانها «في سبيل روحانيّة التجسّد» (الإسكندرية ، ١٩٨٦) .

فهنالك نظرات إلى العقّة من شأنها أن تُفقد المرء حيويّته وتمنعه من أن ينفّث على بعض الحقائق الأرضيّة والجسديّة التي تحمل في طياتها رسالةً في غاية الغنى والأهميّة. وغالبًا ما يضعون «الإنسان الجسديّ» و«الإنسان الروحيّ» على طرفيّ نقيض، وكأنّ المرء، إذا ما ازداد روحانيّة، فَقَدَ إحساسه وشعوره وقدرته على التجاوب مع كلّ ما هو أرضيّ، وكلّ ما هو بشريّ، وكلّ ما هو جميل.

إلا أنّ التاريخ يُظهر لنا عكس ذلك، فبيّن أنّ كبار المتصوّفين إنّما كانوا أناسًا في غاية الإحساس، حسيّين جدًّا - لئلاّ نستعمل كلمة «شهوائيّين». وكان جمال العالم وسرّه ينفذان إلى شغاف قلوبهم. كانوا شعراء وفتّانين. كان فرنسيس الأسيزيّ وبوحنّا الصليب وتريزيا الأبليّة أناسًا خاطبتهم الأرض بلغة روحية، لغة قدسيّة، لغة إلهيّة. وبقدر ما يزداد المرء روحانيّة يزداد تحسّسه الحقائق الأرضيّة والجسديّة.

ومن ثمّ، فالتّيار الحديث الذي يبشّر بـ «العودة إلى الأرض»، وإعادة اكتشاف «الشعور بالأرض» - كما عبّر عنها نيّشه أو تيار ده شاردان أو يُوسيل<sup>(٥)</sup> - ما هو إلاّ عودة إلى جذور المسيحيّة بالذات.

---

(٥) هو الأب فيكتور پوسيل (Poucel) اليسوعيّ. وُلد في فرنسا العام ١٨٧٢ وعاش مدّة من الزمن في الشرق بين مصر ولبنان حيث مارس التدريس والتأليف. له عدّة كُتب نَوّه فيها بالطبيعة والأرض، من أشهرها: صوفيّة الأرض. دفاعًا عن الجسد. توفّي في دير تنائيل (لبنان) العام ١٩٥٣ (الناقل).

ولعلّ نيتشه كان أشدّ المفكرين إثارة لنا، بصفة كوننا مسيحيين، ليجبرنا على العودة إلى جذورنا واكتشاف تراثنا مجدداً. فنبئ العصور الحديثة هذا يطرح علينا السؤال التالي بشيء من الفظاظلة: «هل أفقدت المسيحية الإنسان رجولته؟...» هل أفقدته حيويته واندفاعه؟ وبعبارة أشدّ جرأة: هل جعلت منه «خصيّا»؟

ألم تصبح المسيحية ضرباً من الأفلاطونية المستترة تدعونا إلى الهروب باتجاه «الأفكار الصّرف»، بدلاً من أن تكون ما هي في الحقيقة، أي روحانيّة تجسّد؟

«يا أخوتي، كونوا أوفياء للأرض، بكلّ ما أوتيتهم من قوى»: هكذا يتحدّثنا نيتشه ويستحثّنا. أجل، بكلّ قواكم، وتلك القوى التي تحملكم على التجرّد عن الأرض، فلتحملكم منذ الآن على التمسك بها بالإصرار نفسه. فكلّ تجرّد لا يكون تمسكاً، ليس بتجرّد. إنّ هو إلّا غياب وحسب، وفراغ وحسب.

لقد حاولت بيان أفكار من هذا القبيل في بحث أسمّيته الأنسيّة المسيحية (Humanisme Chrétien). وقلت ثمة ما مفاده: إنّ لم يكن تجرّدي في بدايته تمسكاً، فلا معنى له، لأنّي إذ ذاك لا أتجرّد عن أيّ شيء ما دمت لم أتمسك بشيء. وهناك من يظنون أنّهم تجرّدوا عن كلّ شيء، لأنّهم لم يختبروا الحبّ

قَطْ . فهؤلاء ليسوا من المتجرّدين ، بل هم أناس تعساء . ذلك بأنّه ينبغي للمرء أن يحبّ أوّلًا ، ينبغي له أن يبدأ ويتعلّق بواقع هذه الدنيا ليستطيع بعد ذلك أن يحيا حقًا وبدون شبهة أبعاد التجرّد والتسامي .

كلّ حياةٍ روحيةٍ حقّ تفترض مسارًا مثلث المراحل : الارتباط، فكّ الارتباط، التسامي . أو ، بعبارة أخرى : الغوص في الباطن، النهوض إلى الخارج، الانخفاف . أو ، بحسب تعابير الفلاسفة المدرسيّين : طريق الإيجاب، طريق النفي، طريق النياقة . ومن دون الخطوة الأولى التي تجعلنا قادرين على التجاوب مع كلّ ما هو أرضيّ وكلّ ما هو جسديّ ، وكلّ ما هو إنسانيّ ، فليس من تجرّد ، بل ثمة إفقار وحسب .

ما يجعل الشجرة قادرةً على الانطلاق نحو السماء هو كونها مُوغلّةً في الأرض بجذورها . وإن كان التأمل انطلاقةً نحو السماء ، فلاّنه في الأساس مرتبط بالأرض شديد الارتباط . كلّ صلاة لا تنطلق من تحسّس الأرضيّات كُتِب لها الهروب وكانت أوهامًا مجرّدة . وعلى العكس ، بقدر ما تكون أرضيّة ، تكون سماويّة . فليست الروحيّات نقيض الجسديّات ، بل إنّها مكملّتها تسير بصحبتهما .

إنّ الكتاب المقدّس يخاطبنا دومًا بأسلوب الرموز والاستعارات . وعلى النحو ذاته تخاطبنا الليتورجية . لذا ، فمَن أراد أن يفهم معنى تلك الرموز والاستعارات ، توجّب عليه اختبار

الواقع الذي ترتبط به . فالرمز لا يعني شيئاً إلا لمن تذوق في العمق الأمر المشار إليه . فإن قلتُ «ماء» لِنَ لم يستحِمَّ في البحر قطّ ، أو لم يشعر بشدّة العطش في يوم من أيّام الصيف الحارّة ، فإنّي لم أقل شيئاً . ولا يستطيع فَهَمَ كلمة «ضوء» حقّ الفهم ، من لم يشاهد شمس بلادنا الشرقيّة عند الظهيرة وهي تنوء بثقلها على الطبيعة الغافية ، ساعة تسكن أوراق الشجر وتتألق الدنيا بياضاً .

ليست الحقائق الروحيّة فوق الحقائق الجسديّة ، بل هي في داخلها . وهذا شأن الله ، فإنّه ليس فوق العالم فنُضطرَّ إلى الهروب من الواقع لنصل إليه ، بل إنّهُ في قلب العالم ، في صميمه . لذا ، لما أتيتُ على ذكر الحصاة ، قلتُ إنّنا من خلال لمسها والشعور بنعومتها ، وجمالها ، ووزنها ، وتماسكها ، وصلابتها ، وجدنا فيها تعبيراً عن الله وبعداً من أبعاد الله . من خلال تلك المادّة الصلبة ، الجميلة ، الكثيفة ، شعرنا بقليل من سرّ الله نفسه .

إنّ معنى الأشياء لا يأتيها من الخارج ، بل يُكتشف من الداخل . فلا نقولنّ : «نحن روحيّون ، فنأتي بالمعنى من علّ» . وذلك بأنّ المعنى هو في الشيء ، هو في الأرض . لقد خبأه الله في داخل العالم كما أنّ اللبّ مخبأً في داخل النواة .

وعليه ، فقد يكون من المستحسن أن نمرّ بالشعر لنصل إلى التصوّف . وقد تساءل هنري برومّون Bremond في كتابه

الشعر والتصوّف عن الفرق بين هاتين الكلمتين: هل كلّ شعر تصوّف، وكلّ تصوّف شعر؟ والواقع أنّ الشاعر شأنه شأن المتصوّف، وكلاهما ينتشي عظيم النشوة أمام الأرض والطبيعة والجمال. فما هو الفرق إذاً بين هذا وذاك؟ في رأيي، إنّ الشاعر يقف في الطريق ولا يذهب حتّى آخر المسيرة حيث يتمّ التثبّت من أنّ جوهر ذلك الواقع الذي يتذوّقه بكلّ جوارحه، إنّما اسمه «الله». ونقطة الانطلاق لدى الاثنين واحدة، لأنّه ينبغي للمتصوّف أن يكون أولاً شاعراً. ينبغي له أن يتمتّع بالقدرة على الاتحاد بالعالم، والتحاور مع الطبيعة، وأن يتمتّع أيضاً بصفاء الرؤية، والانفتاح على ما هو سرّ، والشعور المرهف - وقد أقول الضعف - الذي يجعله يتأثّر حتّى شغاف القلب بشؤون الخلائق وشجونها. وتردّدُ أصداء العالم هذا في جنبات كيانه إنّما هو المرحلة الأولى والضروريّة لبلوغ التصوّف واكتشاف الله.

ومن هذا المنطلق أقول إنّ المحبّة تفترض الهوى كما أنّ الشجرة تفترض التربة التي تحتضن جذورها. وقد دأب الناس على القول إنّ «المحبّة» هي حبّ منزّه عن كلّ مصلحة، في حين أنّ «الهوى» حبّ قوامه اللذة الأنانيّة. أمّا أنا فأرى أنّ هذه المعارضة مخطئة وينبغي تجاوزها، على نحو ما بيّنه بوضوح المؤلّف مارتان دارسي Martin d'Arcy في ردّه على كتاب شهير للمفكر نيجرن Nygren والموسوم بـ الهوى والمحبّة Eros et Agapé.

أقول بأنَّ كلَّ محبَّة تتأصَّل في الهوى وأنَّ هناك تمتعًا بالآخر لا بدَّ منه في مرحلة أولى يليها التجاوز باتجاه المحبَّة . لا بدَّ لنا في البداية من اكتشاف كلِّ ما في الآخر من جاذبيَّة وإغواء ليكون لمحبتنا أساس في الواقع ونُبَّعِد عنها خطر التصلُّب والتبخُّر في متاهات التجريد .

وينبغي لصلاتنا أيضًا أن تستمدَّ انطلاقتها من الموسيقى والفنِّ والجمال . فالرسوم الجميلة ، والألحان الرخيمة ، والمناظر الأخاذة تساعدنا كلَّ المساعدة في وقت الصلاة ، وقد أدركت الكنيسة هذا الأمر فلجأت في طقوسها إلى كلِّ ما من شأنه أن يثير العاطفة ويسمو بالقلوب . وعندما نلاحظ أنَّ حياتنا الروحيَّة تجفُّ أو تميل إلى الذبول ، فعلينا أن نطرح على ذواتنا السؤال التالي : أليست نفوسنا ظمأى ؟ ألم نحرمها ذلك الطعام الحسِّي الذي يستطيع أن يبتِّ فيها قوَّة الانطلاق وعنفوان الحيويَّة ؟

ولدينا في خبرة القديس إغناطيوس ده لويولا خيرَ مرشد في هذا المجال . ألم يستعمل في صلاته «تطبيق الحواسِّ» و«تصوُّر المكان» قبل البدء بالتأمُّل ؟ فهذا الإنسان ، الذي قيل فيه إنَّه قاسٍ ومجرَّد ، يدعونا إلى النظر ، والسماع ، والشعور ، واللمس ، ومشاهدة أحداث الإنجيل في أدقِّ تفاصيلها ، وابتداع جميع الوسائط التي من شأنها أن تغذي أحاسيسنا .

كلَّ الأمور تنطلق ممَّا هو ملموس ، حتَّى أسمى الروحيَّات ، والمقولة التي أطلقها الفلاسفة المدرسيُّون في الماضي : «ما من شيء

في العقول إلّا كان قبلاً في الشعور» ، ما زالت صالحة ويحسن تطبيقها على صعيد الصلاة . ولا شك في أنّه لا ينبغي التوقّف على هذا الحدّ ، والاكتفاء بتذوّق فتّي أو جماليّ وحسب ، بل المطلوب السير في هذا الطريق حتّى النهاية ، فيسهل إذ ذاك الوصول إلى اكتشاف وجود الله نفسه في صميم الواقع .  
ليس التصوّف اتّحاداً بالعالم وحسب ، بل هو اتّحاد بالله بواسطة العالم ومن خلال العالم . إنّ اكتشاف وجهه ، وجه الحبيب ، في ما وراء مادّيّة الأشياء وكثافتها وعدم شفوفها .



## عود على بدء : سرّ الطبيعة<sup>(٥)</sup>

في الطبيعة سرّ . وسرّ الطبيعة هذا باب مفتوح على سرّ الله .  
ومن غاص في الطبيعة غاص في الله ، واكتشف الأرض في  
بكراتها الأولى ، كأنها خرجت لتوها من يدي بارئها . إنه  
الرجوع إلى الأصول ، الرجوع إلى ينباع العالم والخليقة بالذات .

قال مارسيل ليغو Marcel L\u00e9gaut ، وهو أستاذ جامعي ترك  
كلّ شيء ليعيش عيشة الفلاحين والرعاة في الريف :

«هنا عشتُ يومًا بعد يوم متّحدًا أشدّ الاتحاد بكلّ ما يولد  
ويحيا ويموت في صمت الطبيعة . هل من حاجة إلى القول إنّه لا  
بديل لذلك ؟ فما من شيء ممّا يأتي به المجتمع البشريّ ، حتّى ما  
هو الأرقى والأسمى في الثقافة والفنّ ، يستطيع أن يحلّ محله  
ويكون له بديلًا» .

وإنّي لواتق ، شأني شأن مارسيل ليغو ، بأنّ المرء الذي لا  
يستطيع حينًا بعد حين ، الاتّصال المباشر بالطبيعة ، أعني الطبيعة

---

(٥) هذا الفصل مختصر الشقّ الثاني من المحاضرة التي عنوانها «في سبيل روحانيّة  
التجسّد» أطلب ص ٢٧ .

الحقّ ، لا يلبث أن يفرغ ويدوي ويفقد ما فيه من حيويّة وحياة . بدون الغوص في العالم الطبيعيّ ، لا مجال للتجدّد . وليس من باب المصادفة أن تقوم الأديرة عادةً في الريف ، أو في الجبال أو في الصحراء . وليس من باب المصادفة أيضًا أن يكون في كلّ دير حديقة داخلية تتيح للنفس الرجوع إلى ذاتها . الطبيعة جزء من الحياة التأمليّة لأنها تحمل رسالة إلهيّة ، ولأنّها مدخل إلى أبعادٍ قُدسيّة . للطبيعة دورٌ «مؤنّسين» ولأنّه مؤنّسين فهو «مُرَوِّجن» .

و«العود إلى الطبيعة» هذا ، الذي بات شائعًا على نحوٍ ملحوظ في أيّامنا ، ويتجلّى في التوق الحثيث إلى السياحة والسفر ، ليس تيارًا عابرًا ، بل إنّهُ حاجة حقيقيّة . فالإنسان المعاصر يجد نفسه سجين آليّة حياة المدن ، وتقنيّتها ، وصناعاتها ، وخطوطها المرسومة الصارمة ، ولذلك فإنّه بحاجةٍ مصيريّة إلى إعادة الاتّصال بواقع الطبيعة ، ممّا يتيح له العودة إلى الحياة والتجدّد .

ولا بدّ للذين لم يحالفهم الحظّ ليكونوا في الريف أو في الجبل أو قرب البحر ، أن يجدوا لهم أقلّه حديقة صغيرة لإعادة هذا الاتّصال .

فالجنة هي الواقع السريّ المليء رغبة ، بفسحاته الظليلة والمستتيرة ، بأكشاكه المبعثرة هنا وهناك ، بأشجاره وأزهاره ، بزواياه وخباياه .

في الولايات المتحدة وأوروبا يعشقون الحدائق عشقًا . في  
الريف ، وفي ضواحي المدن والأحياء السكّنيّة ، تمتدّ أمامك  
جنيات لكأنّ كلّ واحدة منها فردوس مصغّر يهتمّ به صاحبه  
اهتمام المتّيمّ بحبيبه . ولما كانت أسفاري تقودني إلى هناك ، كان  
أحد أسباب متعتي التجوّل في بعض الأحياء والشوارع لمشاهدة  
الجنّينات . لقد كنتُ أجني منها فرحًا صافيًا وسلامًا باطنًا عميقًا .  
وثمّة ظاهرة أخرى توقظ فيّ أرهف المشاعر وتفتح قلبي على  
سرّ الله ، هي ظاهرة الصباح . لقد قمتُ باكتشاف تلك الحقيقة  
من خلال مشاهدتي شريطا سينمائيّا إذ كنتُ في الرابعة عشرة .  
ومنذ تلك المناسبة صرْتُ أعتبر كلّ صباح تشرق فيه الشمس  
ظهورًا يتجلّى من خلاله إلهي الشابّ أبدًا ، الجديد أبدًا ، المولود  
يومًا بعد يوم دائمًا أبدًا .

أمّا هذا الشريط فكان يمثّل جماعةً من الأولاد تركوا منازلهم  
في الخامسة صباحًا وساروا بمحاذاة قناة صغيرة تحفّ بها أشجار  
تنعكس صورتها في المياه . ولم تكن الشمس قد أشرقت بعدُ ، إلّا  
أنّ نورًا صافيًا على أشدّ ما يكون الصفاء راح يتصاعد في الأفق ،  
ويملأ أرجاء الطبيعة التي بلّلتها الليل بالندى .

في ذلك اليوم ، باح لي الصباح بسرّه ، فأدركتُ أنّه فجر  
الدنيا وتدفّق الخليقة بالذات . فالصباح حقيقة حُبلى بالوعود ،  
مثقّلة بالمستقبل ، محمّلة برجاء لا نهاية له . ومنذ تلك الساعة ،  
عندما يتاح لي الخروج صباحًا للتنزّه في الطبيعة ، أشعر بالإحساس

نفسه . ولا شك في أنّ الصباح و«الحديقة» كانا، في ما يخصّني، خبرةً شديدة الوقع، عميقة الغور إلى حدّ أنّهما صارا لي مرجعاً أعود إليه جميع أيام حياتي .

والكتاب المقدّس برمّته دعوة إلى اكتشاف الله من خلال الكون، حيث كلّ مخلوق هو نشيد حيّ يمجّد الخالق :

«السماءات تحدّث بمجد الله

والجلدُ يخبر بما صنعتُ يداه

النهارُ للنهار يُعلن أمره

والليلُ لليل يذيع خبره» (مز ١٩ : ٢ - ٣) .

والطبيعة هي ، لمن يحسن فهم لغة الكون ، كتاب مفتوح ، نصّ مقدّس ، «كتاب مقدّس» قبل الكتاب المقدّس يخبر بعظائم أعمال الله في خلقه :

«لأنّ ما يُعرّف عن الله بيّن ( . . . ) ،

فمنذ خلق العالم لا يزال ما لا يظهر من صفاته ،

أي قدرته الأزليّة وألوهته ،

ظاهراً للبصائر في مخلوقاته» (رو ١ : ١٩ - ٢٠) .

كلّ واحد من هذه الأعمال هو كلمة ترصّع قصيدة أو بيت شعر ، أو نغمة في سمفونية العالم العظمى . الطبيعة موسيقى صامتة ، تعبير بدون ألفاظ ، كلام لا يُسمع له صوت : «لا حديث ولا كلام ، ولا صوت يسمعه الأنام ،

بل في الأرض كلّها سطوراً بارزة  
وكلماتٌ إلى أقاصي الأرض بيّنة» (مز ١٩ : ٤ - ٥) .  
الخلايق جميعها مدعوة لتسبح الله : تارة الشمس أو القمر أو  
النجوم ، وطوراً البحر أو الريح أو الغمام . تارة الجبال والأشجار  
وانغابات ، وتارة أخرى الأنهار والجداول والينابيع . تارة المطر أو  
الرعد والعواصف ، وطوراً الطيور والأسماك والدوابّ ... وخير  
ما يعتبر عن تلك الأمور ما ورد في المزمور ١٠٤ ، أو في نشيد  
الفتيان الثلاثة بسفر دانيال ، أو في سفر أيّوب . فلمّا أراد الله أن  
يبين لأيوّب حبه العظيم وحكمته اللامتناهية وقدرته الفائقة، أخذ  
يصوّر له خليقته بأسلوب لا مثيل له، ممّا جعل من هذا السفر أحد  
أروع الآثار الأدبيّة العالميّة . فبعد أن وصف الله تدفق البحار  
وبروز القارّات واندلاع النجوم ، راح سبحانه وتعالى يصف،  
بأدقّ ما يكون الوصف ، عجائب عالم الحيوان ، من الطيور إلى  
حصان البحر ، مروراً باللبوة وأشبالها ، والأيل والحمار الوحشيّ  
والنعامة والحصان (أيّوب ٣٨ - ٤١) . ذلك بأنّ كلّ ذي حياة  
يعلن مجد الله بأسلوبه الخاصّ ، ويكفي أن نتأمّل في الطبيعة لنخرّ  
ساجدين عابدين .

أورد دوشؤيفسكي في كتابه الإخوة كارامازوف ما جاء  
على لسان أحد النساك الشيوخ ، قال :  
«أحبّوا خليفة الله كلّها ،  
أحبّوها بجميع ما فيها حتّى أصغر ذرّة من التراب .

فإن أحببتهم كلّ الأشياء واحدًا واحدًا ،  
تدركون سرّ الله في الأشياء .

وهنا يكمن الفرق ، كلّ الفرق ، بين الدراسة العلميّة  
والمشاهدة الصوفيّة . فالعالم يلاحظ العالم ويحلّله ليعيد بناءه ،  
ونظره نظرٌ مدقّق علمي . أمّا المتصوّف ، فإنّه يلقي على العالم  
نظرة حبّ ، نظرة المحبّ . وهو يتجاوز المظهر ليغوص في عمق  
الوجود ، ويتجاوز القشور ليصل الى اللباب وهو ذاك «الجوهر  
الذي لا تراه العيون» ، وما يسمّيه دوستوفسكي «سرّ الله في  
الأشياء» .

وهنا أودّ أن أعرض عليكم خبرة أخرى ، وهي أن تنتزّها في  
الدنيا تنزّهكم في حديقة هي لكم . هذا العالم الذي هو ملك الله  
هو أيضًا ملكي ، لأنّ الله جعلني ابنه ووريثه بكلّ ما في الكلمات  
من معنى . ألم يقل في مثلّ الابن الضالّ : «كلّ ما هو لي فهو  
لك» (لوقا ١٥ : ٣١) ؟ ويضيف بولس الرسول : «لستم إذا بعد  
اليوم غرباء أو نزلاء ، بل أنتم ( . . ) من أهل بيت الله» (أف ٢ :  
١٩) . وأيضًا «أرسل الله روح ابنه إلى قلوبنا ، الروح الذي ينادي  
يا أبت . فلست بعد عبدًا بل ابن . وإذا كنتَ ابنًا فأنتَ وارث  
بفضل الله» (غل ٤ : ٦ - ٧) .

فلأنتني ابن الله أنا وارث العالم ، ولأنتني ابن الله ، أنا مالك  
الأرض . كلّ شيء لي . كلّ شيء ملكي : الطبيعة هذه لي ،  
البحر هذا لي ، الشاطئ هذا لي ، الكون البديع هذا لي .

لقد شعر المتصوّفون الذين تخلّوا عن كلّ شيء ، بأنّهم ملكوا كلّ شيء . لم يكن لهم شيء ، فكان لهم كلّ شيء . فقدوا الكلّ فربحوا الكلّ . وهذا ما عناه القدّيس فرنسيس الأسيزيّ لما أنشد وهو في غاية الفقر :

السماء لي والأرض لي ،  
الشمس لي ، والقمر لي ، والنجوم لي ،  
والعالم كله لي .

من لا حديقة له كان العالم له حديقة . من لا منزل له كان العالم له منزلاً . من لا أسرة له كانت البشريّة له أسرة . طوبى للفقراء لأنّ لهم ملكوت السماوات ... ولهم أيضًا ملكوت الأرض ! ... الفقر الداخلي يفتح لنا أبواب ثراء لا مثيل له ، أبواب امتلاك العالم على نحو يجعلنا نستطيع ضمّه وتقبيله بكلّ عفاف .

في نظر المتصوّف لا فرق بين ملكوت السماوات وملكوت الأرض ، فكلاهما في الحقيقة ملكوت واحد . ولقد قال دوستوفسكي في هذا المعنى :

« ليس العالم الآخر سوى عمق العالم هذا » .  
أجل ، فالعالم الآخر ليس في مكان آخر ، بل هو بُعْد العمق في عالمنا هذا .

( ... ) ومنذ أن صار الكلمةُ جسداً ، لم يَكْفَ عن أن يسكن العالم ، وجميع الأشياء تعبّر عن بعض ما فيه من سرّ . لذا

ينبغي أن نلجأ إلى الصلاة لنستمع إلى كلام الأشياء الصامتة فتُعِيد دمجها في «الكلمة» .

ذلك بأنّ الأشياء لا تنطق، بل تكتفي بأن تكون . ولكن كيائها كلمة صامتة موجهة إلينا ، و«الكلمة» يوحى بذاته لنا في كلام الأشياء الصامت . ولكن يكن باستطاعتنا أن ندرك الله من خلال ما هو حقّ ، فيمكننا الوصول إليه أيضًا ، على نحو أعمق وأقرب إلى واقع الحياة ، من خلال الجمال . فقد شوّهنا ميلنا المفرط إلى شؤون الفكر ، والكلام ، والكتب ، فيخيل إلينا ، بل نعتقد أننا لا نستطيع الوصول إلى الله إلاّ بواسطة الفكرة والخطاب والحقّ . بيد أنّ هناك هوةً سحيقة بين أسمى الأساليب اللاهوتية وأبسط سُبل تصوّف . الله أرفع من الكلام والتفكير ، وكلّ ما يُقال عنه بالكلام أبعد من أن يفهمه حقّه .

أُتيح مرّةً للقديس إغناطيوس ده لويولا أن يختبر حدثًا من أغنى ما اختبره في حياته الروحية . وكان ذلك على ضفاف ساقية الكارزونيير فأوحى له سرّ الثالوث . والغريب أنّ خبر ذلك الوحي لا يحتلّ في يوميات القديس الروحية إلاّ بضعة سطور ، ممّا لا يتناسب وأهميّة تلك الخبرة في حياته . وفي ما يلي رواية الحدث: «أوحى لي ، في بضع لحظات ، سرّ الثالوث بوضوح وعمق لا نظير لهما ، حتّى إنّ كلّ ما تعلّمته وقرأته وتأملت فيه إلى ذلك اليوم في شؤون اللاهوت والروحانيات ، وكلّ ما سوف



أَتَعَلَّمَهُ فِي مَا بَعْدَ فِي شَأْنِ سِرِّ اللَّهِ، يَكَادُ لَا يَمِثُّ شَيْئًا إِذَا مَا قِيسَ  
بِمَا اكْتَشَفْتُهُ يَوْمَ ذَلِكَ» .

فَإِنْ لَمْ يَقُلْ الْقَدِّيسُ إِغْنَاطِيوسُ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ ، فَلَأَنَّهُ كَانَ  
أَعْجَزَ مِنْ أَنْ يَقُولَ . وَمَا اكْتَشَفَهُ حِينَ ذَلِكَ لَمْ يَكُنْ مِمَّا يُمْكِنُ قَوْلُهُ  
وَالْتَعْبِيرُ عَنْهُ بِحَالٍ مِنَ الْأَحْوَالِ . فَسَرَّ اللَّهُ ، شَأْنَهُ شَأْنِ سِرِّ الْكَائِنِ ،  
لَا يُعْبَرُ عَنْهُ ، بَلْ «يُعَاشُ» ، وَيُشْعَرُ بِهِ ، وَلَعَلَّ مَهْمَةَ الْجَمَالِ أَنْ تَنْقُلَ  
مِثْلَ هَذِهِ الرِّسَالَةِ .

فَالْأَشْيَاءُ كَائِنَةٌ ، مَوْجُودَةٌ . أَنْظُرُوا إِلَى هَذِهِ الزَّهْرَةِ : إِنَّهَا  
مَوْجُودَةٌ . وَهِيَ لَا تَتَكَلَّمُ ، وَلَكِنْ وَجُودُهَا كَلَامٌ . وَلَئِنْ أَحْسَنْتُ  
التَّوَقُّفَ وَالْإِنْتِبَاهَ إِلَيْهَا ، أَصْبَحَ وَجُودُهَا كَلَامًا وَكَلَمَنِي .

إِنَّمَا التَّأَمُّلُ انْتِبَاهٌ إِلَى كَيَانِ الْأُمُورِ وَوُجُودِهَا ،  
لِلْوُصُولِ إِلَى إِدْرَاكِ السِّرِّ الَّذِي تَتَوَيَّحُ أَنْ تَبْرَحَ  
لِي بِهِ .

كُلُّ حَقِيقَةٍ تَبْرَحُ بِسِرٍّ وَتَخْفِي سِرًّا آخَرَ . إِنَّهَا تَبْرَحُ بِسِرِّهَا ،  
وَلَكِنْ بَدُونِ أَنْ تَتَخَلَّى عَنْهُ ، لِأَنَّهَا فِي حِينِ تَبْرَحُ بِهِ تَحْتَفِظُ بِهِ  
أَيْضًا . وَهَذَا مَا يَفْسِّرُ كَيْفَ يَتِمُّ اكْتِشَافُ الْكَائِنَاتِ ، إِذْ إِنَّكَ  
تَسْتَطِيعُ أَنْ تَذْهَبَ دَوْمًا إِلَى مَا هُوَ أَبْعَدُ فَأَبْعَدَ بَدُونِ أَنْ تَصِلَ إِلَى  
النِّهَايَةِ أَبَدًا .

وَهَذَا هُوَ شَأْنُ سِرِّ الْجَمَالِ . فَإِنَّهُ لَا نِهَايَةَ لَهُ وَلَا يَفْرَغُ . وَكُلُّ  
جَمَالٍ يَفْرَغُ وَيُقَالُ فِيهِ : «لَقَدْ رَأَيْتُهُ ، لَقَدْ فَرِغْتَ مِنْ رُؤْيَيْتِهِ» لَيْسَ  
بِجَمَالٍ حَقٍّ . إِنْ هُوَ إِلَّا جَمَالٌ تِجَارِيٌّ ، لِلِاسْتِهْلَاكِ ، جَمَالٌ

سطحيّ كجمال صُور الإعلانات ، حيث الابتسامات الجامدة  
المصطنعة المبتذلة . وعلى العكس ، إن نظرنا إلى وجه العذراء في  
إحدى لوحات الرسّام فرا أنجيلكو ، استطعنا أن نتأمله طوال  
ساعات من دون أن نستهلك ما يحويه من غنى . وهذا ما عنيته  
لما تكلمت على الجمال الذي يبوح بذاته ويختبئ .

والطبيعة أيضًا تبوح بذاتها وتختبئ ، لأنّ فيها شيئًا من الخفر  
يدفعها إلى الظهور والاختفاء في آنٍ معًا .

وغُثّق الجمال هذا موجود في أبسط الأمور . وللوصول  
إليه ، يكفي من يُحسن النظر حشيشة صغيرة تهتزّ في نسيم  
الصباح ، أو عصفور صغير يلتقط الحبّ على حافة إحدى  
النوافذ . ويمتاز كبار الفنّانين بأنهم يكتشفون ، في أتفه الشؤن  
اليومية ، ما يربطها باللانهاية ، ويبتدعون ، من مشهد بعض  
الحصّيات أو القليل من الماء المتجمّع ، روائع خالدة .

الجمال هنا . الجمال حولي . يكفي ، لإدراكه ، أمرٌ  
طفيف ... نظرةٌ معيّنة . عندئذٍ لا يعود العالم بعيدًا ولا  
إنسانيًا ، غريبًا وعجيبًا ، بل يصبح فجأة قريبًا ، حميمًا ، مألوفًا  
أليفًا ، ويقوم بيني وبينه التواصل والتبادل والمشاركة ، وتُمتسي  
الطبيعة صديقةً ، سميرةً ، أتجاوز معها ، أتحد بها ، أحبّها وتُحبّني .  
يتوق العالم إلى أن يهبني ذاته ، كما تتوق الفتاة إلى أن  
تهب ذاتها من تحبّ . يتوق العالم إلى أن يُنشئ بينه وبين الإنسان  
روابط الحبّ الحقّ ، فيتوقّف عليّ أن أمهدّ له الطريق ، وأفتح له

ذراعِيّ وقلبي وأستقبله ، حتّى إذا ما تمّ لي بذلك كامل الاتحاد  
بسّر العالم ، اتّحدتُ كاملَ الاتحاد بسّر الله .

## نشيدٌ إلى المادّة<sup>(٥)</sup>

مباركة أنتِ، أيتها المادّةُ الحَشِينَةُ، والطِينَةُ العَقِيمَةُ، والصخرةُ القاسيةُ، أنتِ التي لا ترَضَخُ إلَّا للعنفِ وتجبرنا على أن نعملَ إن أردنا الحصولَ على الطعامِ.

مباركة أنتِ، أيتها المادّةُ الخطِيرةُ، والبحرُ العنيفُ، والهوى الذي لا يُكَبِّحُ جماحُه، أنتِ يا مَنْ تلتهمنا إن لم نكبِّلها.

مباركة أنتِ، أيتها المادّةُ القديرةُ، والتطوُّرُ الذي لا يقاومُ، والحقيقةُ التي تُولدُ باستمرارٍ، أنتِ يا مَنْ تفجِّرُ أطْرُنَا في كلِّ لحظة فتضطرُّنا إلى تتبُّعِ الحقيقةِ حتَّى أبعد حدودها.

مباركة أنتِ، أيتها المادّةُ الشاملةُ الكونيَّةُ، والزمنُ غيرُ المحدودِ، والأثيرُ الذي لا شطآنَ له، والهَوَّةُ المثلثةُ حاويةُ النجومِ والذراتِ والأجيالِ، أنتِ التي تتخطَّى مقاييسنا الضيقةَ وتُذِيبُها، فتكشفُ لنا أبعادَ الله.

مباركة أنتِ، أيتها المادّةُ التي لا ولوجَ فيها، أنتِ التي تمتدُّ في كلِّ مكانٍ بين أرواحنا وعالمِ جواهر الأشياءِ، فتُذِيبُنا شوقًا إلى أن نهتكِ سرَّ الظواهر غيرِ المخيِّطِ.

---

(٥) من كتاب الأب پيار تيار ده شاردان نشيد الكون *Hymne de l'univers*

مباركة أنتِ، أيتها المادّة المائتة ، أنتِ التي سوف تنفصل عتّا يوماً فتدخلنا، بالقوّة، في صميم الكيان .

لولاكِ أيتها المادّة ، لولا هجماتك ، لولا انتزاعاتك ، لَعِشْنَا بدون حراك ، كالمياه الآسنة ، صبيانيتين ، نجهل ذواتنا ونجهل الله . أنتِ التي تُثخن جراحنا وتضمّد ، أنتِ التي تقاوم وتلين ، أنتِ التي تزلزل وتهدم ، أنتِ التي تكبّل وتحرّر ، أيا ماويّة أرواحنا ، ويدَ الله ، وجسدَ المسيح ، يا مادّةُ، بُورِكتِ .

لكِ منّي البركة ، يا مادّة ، وعليك منّي السلام ، لا كما وصّفك أبحارُ العلم ووعاظ الفضيلة فمسخوك وشوّهوك وقالوا إنَّك لَمّةٌ من القوى العاشمة أو الأهواء الدنيئة ، بل كما تظهرين لي اليوم في كليّتكِ وحقيقتك .

عليكِ منّي السلام يا قدرةٌ تُكوّنُ وتبدّلُ بدون أن ينضب معينها ، وفيها ينبتُ اللبُّ المختار وينمو .

عليكِ منّي السلام ، يا قوّة كونيّة تقربُ وتوحّد ، بها تتّصل حُشود الأحاديّات وفيها تلتقي جميعُها على دروب الروح .

عليكِ منّي السلام ، يا نبع الأرواح المتناغم ، يا بلوّراً صافياً استنبطت منه أورشليم الجديدة .

عليكِ منّي السلام ، يا وسطاً إلهيّاً، شُجِحَ بالقوى الخلافة ، يا خضماً هزّه الروح ، يا صلصالاً جَبَلَه الكلمة المتجسّد وأحياه .

يُخَيَّلُ إلى الناس أنهم يلبّون نداءك الذي لا يقاوم ، فيلقون بأنفسهم ، المرّة تلو المرّة ، وحبّاً لكِ ، في الهاوية البرانيّة حيث

الملذّات الأنانيّة. فمجرّد وميضٍ يُضلّهم ، أو بعضٌ من صدّى .  
وها إنّي أرى الآن وأدرك .

فلبلوغك، أيّتها المادّة ، ينبغي أن ننطلق من علاقة شاملة بكلّ  
ما يتحرّك في هذه الدنيا ، ثمّ نشعر بأنّ الأشكال الخاصّة بكلّ ما  
نتمسّك به تتلاشى رويدًا رويدًا بين أيدينا ، فلا يعود لنا من صلةٍ  
إلاّ بالجوهر الواحد الذي عليه تقوم جميع المناسبات وجميع  
الاتّحادات .

ينبغي لنا، إنّ أردنا أن نكتسبك ، أن نتسامى بك في الألم  
بعد أن نكون قد ضممنّاك بلذّةٍ ولهفةٍ بين أذرعنا .

إنّك تملكين ، أيّتها المادّة ، في الأعالي المشرقة حيث يُخيّل  
إلى القديسين أنّهم يتحاشون عنك ، وتقومين هناك جسّدًا بلّغ من  
الشُفوف والحركة ما يجعلنا لا نعود نتميّز عن الروح .

إنّترعيني، يا مادّة ، إلى تلك الأعالي ، بالجهد والفراق  
والموت . إنّترعيني إلى حيث أستطيع ، في النهاية ، أن أضمّ الكون  
بعفاف .

## المحتويات

في سبيل صلاة متجسّدة	
ملاقة الله في صميم المادّة	٥.....
أومن بقيامة الجسد	٦.....
خبرة الحصاة	١٥.....
الله صخرتي	٢٠.....
عود على بدء: معنى الأرض والشعور بها	٢٥.....
عود على بدء: سرّ الطبيعة	٣٣.....
نشيد إلى المادّة	٤٤.....

صدر في «موسوعة المعرفة المسيحيّة»

## الحياة الروحيّة

---

- ١- الصلاة، لماذا؟ (ط٢)
- ٢- كيف أصلي؟ (ط٢)
- ٣- خواطر في التبتّل المكرّس
- ٤- سرّ الصليب الفصحّي بحسب الطقس الماروني
- ٥- الحياة الرهبانيّة في أيّامنا
- ٦- خواطر في العقل والإيمان
- ٧- بالمادّة أصلي





أنجزت «المطبعة الكاثوليكية ش.م.ل.» عاريا - لبنان  
طباعة هذا الكتيب في الخامس والعشرين  
من شباط ١٩٩٧

٩٧/٢/٢٥-٢-٠١٧٧٠١



الأب هنري بولاد اليسوعي عمل في مناصب تربوية وإدارية متعددة، وهو اليوم رئيس دير رهبانيته في الإسكندرية. له خبرة واسعة في الرياضات الروحية والمحاضرات الدينية والثقافية، وصدر له عدد من الكتب في اللاهوت والفكر والتصوف المسيحي، بعضها نُقل إلى اللغات الأوروبية.

الأب كميل حشيمه تسلّم مناصب إدارية وتربوية في الرهبانية اليسوعية، وهو الآن مدير «دار المشرق» للنشر. مارس الإرشاد الروحي في العديد من الأخويات، بين الجامعيين والمربين والمتزوجين. له عدّة مؤلفات وترجمات في الروحيات واللغة والأدب لا سيّما الأدب العربي المسيحي.

[www.difa3iat.com](http://www.difa3iat.com)

